عجوة ببيض

للأستاذ إبرهيم عبد القادر المازنى

— بابا . هات خمسة قروش !

— يا أخى ، قل صباح الخير أولاً

— آه ، صحيح ، طيب صباح الخير ، هات بقى !

— سبحان الله العظيم ! ألا تنتظر حتى أرد عليك هـذا التصبيح بالخير ؟

— طيب ، ردّ

فأتلكأ — أهز رأسى أسفاً ، وأمصمص بشفتى متعجباً ، وأقلب كفى ، ولـكن هذا كله له آخر فيعود اللعين إلى المطالبة بالقروش الخمسة ، فأسأله : « هل يليق أن تصبح أباك — على الريق — بطلب فلوس ؟ »

فيتعجب لى كيف أقول إن هذا غير لائق ، ولا يستطيع أن يفهم أن ابتداء يوم جديد بإنفاق من المرجح أنه فى غير محله ، صعب على النفس جدًّا ، فأقول له : « إنتظر ، حتى تكبر وتعرف بالتجربة »

فيصيح : « يا خبر أبيض ! انتظر حتى أكبر ؟ لا يا بابا ، أنا مستعجل ، وقد وبخنى المعلم أمس »

فأسأله السؤال الذى كان ينبغى أن ألقيه عليه فى بداية الحوار :

— لماذا تريد خمسة قروش ؟ ماذا يمكن أن يصنع طفل مثلك بخمسة قروش ؟

فيقول : « أشترى بها كتاب المطالعة الانجليزية »

فأسأله مرة أخرى : « أو لم تعطك المدرسة كتاباً ؟ »

فيقول : « تقطع ولم يبق صالحاً للاستعمال »

— ولماذا تقطعه ؟

— لست أقطعه ، هو تقطع !

— تكلم بعقل ، كيف يقطع الكتاب نفسه ؟

— لم يقطع نفسه ، ولكن المعلم يأمرنا أن نطويه ، فيبلى ، ويتخرق ، ويتمزق

— هل تعلم أنى كنت تلميذاً مثلك ؟

— لا ...

— لا ؟ كيف تقول لا ؟

— طيب أعلم — إنما عنيت أنى لم أرك ولم أكن معك — هات بقى ثمن الكتاب

— وأنا إنما أعنى أنى لم أحتج فى حياتى المدرسية كلها أن أشترى كتاباً مدرسيًّا لأن كتبى لم تكن تتقطع وكانت لا تبلى أبداً

فيضحك الخنزير ويقول : « لا مؤاخذة يا بابا ، ولكن يظهر أنك كنت تلميذاً كسلان »

فأضحك مثله وأزعم أنها نكتة ، ولكن الواقع أنها أصابت المحزّ ، ووقعت على المفصل ، فما أعرف من زملائى فى عهد الدرس والتحصيل من كان أبلد منى أو أشد كسلاً . ولا أدرى كيف كنت أنتقل من فرقة إلى فرقة ، وأحسبهم كانوا يؤثرون أن يجبروا خاطرى ويترفقوا بضعفى . ولما أتممت التعلم — أى فرغت من المدارس — وجدت عندى صفوفاً من كتب الدراسة نسجت عليها العناكب بيوتاً وقصوراً ، وقد أخذها منى صديق ، وأعطانى بدلاً منها كتاب (الشعر والشعراء) أو (طبقات الشعراء) لابن قتيبة ، طبعة ليدن . وقد بعت هذه أيضاً بثمن غير بخس فى جملة ما بعت من الكتب

* * *

ويدخل اللعين الثانى أو الأكبر فيقول بلا تمهيد ، ولا تصبيح « اكتب هذه البيانات المطلوبة هنا على هذه الورقة ، وسآخذ من جيبك ستة قروش ، ثلاثة لرحلة إلى الهرم ، وواحداً يبقى معى ، ونصف قرش هو مصروفى ، وقرشاً ونصف قرش ثمن برجل وعلبة ألوان »

فأصيح به « تأخذ من جيبى ؟ من أدبك هذا الأدب ؟ ماما ؟ »

فيقول « لا ، إنما أريد ألا أحوجك إلى النهوض من السرير فإن الجو بارد »

فأقول « متشكر ، يا سيدى ، ولكن ما هذه البيانات الجديدة التى يطلبونها ؟ شئ بارد ! »

وتدخل « ماما » فى هذه اللحظة ، فتسأل عن هذا الشئ البارد ماذا عسى أن يكون ؟ فأقول

« صباح الخير أولاً يا ماما ، يانور العين ، ثم إنى أرى كل شئ

بارداً فى هذا اليوم المبارك إن شاء الله — لا أحد يصبحنى بالخير، وكل من يدخل علىّ يقول هات، ولم يكن ناقصاً إلا أن تسألنى المدرسة عن عمرى، كأنى تلميذ فيها، ولست أستغرب أن تسألك غداً عن سنك يا امرأة، فانتظرى، وأعدى الجواب من الآن، وقد أعذر من أنذر ! »

وأرفض أن أعطى الولد نفقات الرحلة قبل أوانها بثلاثة أيام، وأرفض أن أذكر للمدرسة عمرى — لا حرصاً منى على كتمان ذلك — بل لسببين أولهما أنى لست تلميذاً بها، فلا شأن لها بى وبعمرى ؛ وثانيهما أنى لا أحب أن أشجعها على هذا الفضول مخافة أن تسأل بعد ذلك كم سن امرأتى ! وأحدث نفسى وأنا أنطق بعبارات الرفض أن من الواجب أن يكون المرء حازماً فى بيت كهذا

فتقول امرأتى « ولكنى أعتقد أنك لن ترفض أن تعطينى بمائة وعشرين قرشاً ؟ »

فأثب من السرير إلى الأرض وثبة ليت مصوراً كان حاضراً فيرسمها فإنها حركة رياضية بديعة، يُرى فيها اللحاف، وتطوى الساقان، ثم تُدفعان فى الهواء وسائر الجسم وراءهما، ثم إذا أنا واقف على الأرض، لم يتحطم رأسى، ولم يصبنى سوء. ولم أكن أعهد فى نفسى هذه القدرة، ولكن الوقت ليس وقت الإعجاب بالذات

وأصيح « مائة وعشرين قرشاً ؟ أتقولين مائة ... »

فتشير إلىّ أن مهلاً، مهلاً، وتسألنى « مالك تصيح هكذا ؟ ماذا يقول الجيران إذا سمعوك ؟ »

فلا أكف عن الصياح وأنا أقول « الجيران ؛ ليقولوا ما شاءوا ولكن اعلمى — أنت وهم أيضاً — أنى مستعف ... مستقيل ... »

فتضحك ... أى والله تضحك ... وتسألنى « من قال لك افتح بيتاً ؟ »

فأرد عليها بقوة « ومن قال لك إن البيت بالوعة ؟ لا يا ستى أنا مستعف ... مائة وعشرين قرشاً ؟ يا خبر أسود ! »

فتلاطفنى وتقول « اسمع، اسمع، وكن حليماً ... »

فأسألها مقاطعاً « خبرينى أولاً من الذى قال لك إنى أنفق مما أجد تحت السجادة ؟ أو إنى من أهل الولاية وأصحاب الكرامات الذين يمد الواحد منهم يده من النافذة فإذا فيها أصبع من الموز ؟

من رحاب الفن

نفسى بطبيعتها لا تنزع إلى ترف الحياة. ولقد عشت إلى وقت قريب ضالاً. ليس لى بيت مستقر ولا راحة موفورة. ولا حتى مكتبة خاصة تعيننى على عملى الأدبى. إلى أن أوهمنى بعض الناس أن مكانتى كأديب تقتضى أن أغير هذه الحياة. فأصغيت إلى هذا الكلام واتخذت لى مسكناً أنيقاً فى أجمل بقاع القاهرة يشرف على النيل. واقتنيت سيارة جميلة، وجعلت لى مكتبة تزينها التحف والتماثيل. وأكثرت من حولى الخدم يعنون بأمرى. وأعجبنى قليلاً مظهرى هذا الذى يماثل مظهر أدباء أوروبا المشاهير. وغرنى الحال. وحسبت أننا نتمتع فى الشرق بمثل ما يتمتعون من قوة وحرية ومنعة. فانطلق قلمى مرة يبدى رأياً صريحاً فى مسألة قيل إنها تمس السياسة. وإذا أنا أقع فريسة لإجراءات مهينة، فالتفت يميناً وشمالاً أبحث عن عالم الأدب يتولى الدفاع، لا عنى، بل عن حرية الفكر المهدرة. فلم أجد أحداً من الأدباء قد تحرك. ولم أر صحيفة قدمها الأمر. وخرست كل تلك الجرائد التى طالما رفعت صوتى على صفحاتها، واتفق الكل اتفاقاً طبيعياً على إهمال الموضوع. ولم يحفل أصدقائى ولا زملائى ولا قرائى بما حدث لى. ولم يدركوا الخطر الذى يهدد الأدب والأدباء إذا هم شعروا يوماً أنهم لا يستطيعون أن يخرجوا ما فى نفوسهم. (أديب واحد كبر عليه الأمر وأدرك الخطر ونهض فى قلق يحادث المسؤولين ويناقشهم، هو كاتب عظيم يعد فخر أدباء الشرق فى العصر الحاضر. وصداقته لى معروفة من زمان، وإن كنت مع الأسف لم أقدرها قدرها فى كل الأحيان)

على أن الحادث فى جملته قد هز عقيدتى فى منزلة الأدب وفجعنى لا فى شخصى، ولكن فى مركز الأديب فى الشرق، فقد أيقنت أن ما يسمونه « المكانة الأدبية » إنما هى وهم من الأوهام. وأن الأدباء أنفسهم هم المسئولون فى أكثر الأحوال عن انخفاض شأنهم فى المجتمع لخذل بعضهم بعضا

وأحسست من نفسى الذلة، فتركت مسكنى وسيارتى وخدمى، وعدت من جديد أعيش شريداً، كما يستحق أديب فى الشرق أن يعيش.

توفيق الحكيم

أو أن عندى آلات لتزييف النقود ، أو إنى ابن روكفلر ، وبيربونت مورجان وروتشلد معاً ؟ هه ؟ أجيبى أولاً ؟ »

فلا تجيب ، لأنها تضحك مستخفة بأن أجد نفسى كل صباح — على ريق النفس — مطالباً بخمسات القروش للخنزير الصغير ، وستاتها للخنزير الأوسط ، ومئاتها ...

وتقول « ألا تسمع ؟ لماذا تأبى أن تسمع ؟ »

فأقول « لأنى مستعف ... هذا هو السبب ... وسألبس ثيابى وأخرج ولا أرجع »

فتقول وهى تغالب الضحك « ألا تفطر أولا ؟ لقد أوصيت لك ببيض مقلى بالعجوة ، وعصرت لك — الآن، بيدى هاتين — أربع ليمونات حلوة ، . تعال أفطر أولا ... وتتكلم على الطعام »

ترى ماذا أغرى آدم بمطاوعة حواء ؟ كيف وسعها أن تجره من أنفه وتدس فى فمه الواسع — لا بد أنه كان واسعا — التفاحة المحرمة ؟ أترانى ورثت عنه هذا الحب للبيض المقلى بالعجوة ، وعصير الليمون الحلو ؟

لا أدرى ؛ ولكنى أردت أن أشيح بوجهى عنها ، لأقاوم إغراء ما تصف ، وأغالب سحره ، فطالعنى وجهى فى المرآة ، فإذا هو يبتسم ، وما كان يسعنى بعد أن عرفت أنى أبتسم ، أن أظل متجهما .

وجلسنا إلى السفرة وشربت عصير الليمون ، فشاع الاغتباط فى كيانى ؛ وجاء الطبق وفيه البيض والعجوة ، ففركت يدى ، ودفعت طبق إلى امرأتى وقلت: « الله يرضى عنك يا امرأة! هاتى! هاتى ! وليسخط علىّ الأطباء ما شاءوا وما وسعهم السخط ؛ وليزعموا أنى أزيد معدتى تلفاً ، فما أباليهم ، أو أحفل مشوراتهم . هاتى ، هاتى ... ترى ماذا أذكرك العجوة والبيض .. لا،لا،لا.. هذا لا يكفى ... إنى أتصور جوعا ... أكثرى ، أكثرى »

فتقول « معدتك تتلف ... يكفى هذا المقدار »

فأصيح: « لالا ... على رأى العامة « همّ ، وقلة مم!» هاتى ، ولا تخافى »

فتقول : « هل معنى هذا أنك ستعطينى ما طلبت ؟ »

فأصيح « ياستى خذى ما شئت ... كلّى لك ... ولكن هاتى من هذا وأكثرى »

فتنهض وهى تقول « ومعدتك ؟ »

فأقول « سننظر فى أمرها فيما بعد . وأحسب أنى لن أعدم طبيباً يستطيع أن يسكن آلامها . أتعرفين أنه يخطر لى أن الطب قد أخفق لأنه لم يستطع إلى الآن أن يغنينا عن المعدة ؟ فليت هناك دكانا تباع فيه أعضاء جديدة من الجسم تركب له وتتخذ بدلا من التى تتلف ، على نحو ما تباع قطع السيارات ! إذن لوسعنى أن ألتهم كل ما فى هذا الطبق الشهىّ . ولكن آخ ! »

وأجدنى أكلم نفسى ، فأتلفت مستغربا ، وإذا بها تعود ويدها مبسوطة بمائة وعشرين قرشا فأهز رأسى وأسألها

« ما حاجتك إلى كل هذا ؟ »

فتخبرنى أنها دعت « أم أحمد » وأنها تنوى أن تكلفها شراء ثياب لكسوة الخدم ، فقد آن ذلك جداً ، وقد اختارت أم أحمد لأنها ممن أخنى عليهن الذى أخنى على من نسيت اسمه — آه لبد ، يالله من اسم ! — فهى تحب أن تكل إليها أمر الشراء لتكسب قرشين ، فإنها تأبى الصدقة .

فأهز رأسى موافقاً ، ثم أنهض عن المائدة راضيا وأقول لها بابتسامة عريضة : «مائة وعشرون قرشا ثمناً لأكلة عجوة بالبيض! لست أراه باهظا جداً ... لا بأس ! لا بأس ! سيرزقنا الله من حيث لا نعلم ، فلا تخافى ، وأنفقى ما فى الجيب يأت ما فى الغيب

ابراهيم عبد القادر المازنى